

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التنزل مع الخصم

مسألة التنزل مع الخصم لها أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، وقد ذكرها العلماء في مصنفاتهم قديماً وحديثاً:

وممن ذكر ذلك العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله حيث قال في "القول المفيد/ باب: قول الله تعالى:

{وَلَيْتِنَا أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}":

قوله: "إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت " "إن": شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقاً فأبقى الله عليك

النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي بـ "إن" الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك؛ فأبقى الله عليك هذه النعمة،

وإن كنت كاذباً وأنت لم ترثه كابراً عن كابر فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقر، ولم يقل: "إلى ما أقول"; لأنه

كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيراً في الأمور المتيقنة، كقوله تعالى: {اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]، ومعلوم أنه لا

نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته...

إلى أن قال: وفي هذا الحديث [يعني: حديث الأقرع والأبرص والأعمى] من العبر شيءٌ كثيرٌ، منها:

8- جواز التنزل مع الخصم، فيما لا يقر به الخصم المتنزل، لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن

بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابراً عن كابر.

وقد سبق بيانُ ورودِه في القرآن، ومنه أيضاً قوله تعالى: { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [سبأ: 24]، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى، وأولئك على ضلال، **ولكن هذا من باب التنزل معهم**. اهـ

2- قوله تعالى عن إبراهيم مع قومه عن القمر: { قَالَ هَذَا رَبِّي } [الأنعام: 76 - 78].

قال العلامة السعدي رحمه الله: أي: **على وجه التنزل مع الخصم** أي: هذا ربي، فهل منظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان.

3- قوله ﷺ: " فَإِنِ أَظْهَرَ فَإِنِ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا " .

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله في " فتح الباري " ... وَإِنَّمَا رَدَدَ الْأَمْرَ مَعَ أَنَّهُ جَازِمٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَنْصُرُهُ وَيُظْهِرُهُ لَوْ عَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ، **عَلَى طَرِيقِ التَّنَزُّلِ مَعَ الْخَصْمِ وَفَرَضِ الْأَمْرِ عَلَى مَا زَعَمَ الْخَصْمُ**.

4- قوله جل وعلا: { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ } . [غافر: 28].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وَقَوْلُهُ: { وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } أَي: كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكَوْنِهِ يَقُولُ: " رَبِّيَ

الله "، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمْ الْبُرْهَانَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ؟ **ثُمَّ تَنَزَّلَ مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ** فَقَالَ: { وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ } يَعْنِي: إِذَا لَمْ يُظْهِرْ لَكُمْ صِحَّةَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، فَمِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ، فَلَا تُؤْذُوهُ، فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا وَقَدْ آذَيْتُمُوهُ يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمِنَ الْجَائِزِ عِنْدَكُمْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا، فَيَنْبَغِي عَلَى هَذَا أَلَّا تَتَعَرَّضُوا لَهُ، بَلِ اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ يَدْعُوهُمْ وَيَتَّبِعُونَهُ. اهـ

وقال الشوكاني رحمه الله في تفسيره "فتح القدير": **أَرَادَ التَّنَزَّلَ مَعَهُمْ وَإِيهَامَهُمْ أَنَّهُ لَا يَعْتَقِدُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ كَمَا يُفِيدُهُ قَوْلُهُ: {يَكْتُمُ إِيمَانَهُ}**. قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: وَهَذَا عَلَى الْمُظَاهَرَةِ فِي الْحِجَاجِ.

5- قوله عز وجل: {قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}.
[الأنبياء: 62، 63]

قال القرطبي رحمه الله: **يَجُوزُ عِنْدَ الْأُمَّةِ فَرُضُ الْبَاطِلِ مَعَ الْخَصْمِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ أَقْرَبُ فِي الْحُجَّةِ وَأَقْطَعُ لِلشُّبْهَةِ، كَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ: {هَذَا رَبِّي}، و"هذه أختي"، و{إِنِّي سَقِيمٌ}، و{بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}**.

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في "شرح الطحاوية" على قول الطحاوي رحمه الله "وَأَيَقْنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ": هذه الكلمة دليلها قوله عز وجل: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164]، فتكليم موسى أَكَّدَ بالمصدر فقال (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) قال علماء العربية إِنَّ تَأْكِيدَ الْفِعْلِ بِالْمَصْدَرِ يَدُلُّ عَلَى إِرَادَةِ حَقِيقَتِهِ وَأَلَّا يَرَادُ بِهِ غَيْرَ الظَّاهِرِ وَالْحَقِيقَةِ.

هذا القول من باب التنزل معهم بحسب لغتهم، وإلا فإن استعمال الحقيقة والمجاز في هذا الموضع لا يصلح تأسيساً، وإنما إذا كان في الرد على المخالفين فلا بأس به من باب حدثوا الناس بما يعرفون.

أيها الأخوة: تعوذوا بالله جلَّ وعلا من الفتن، تعوذوا بالله جلَّ وعلا من الفتن التي تحرق الدين، وتذهب العقل، فإنَّ النبي ﷺ كان يتعوذ بالله كثيراً من الفتن، وكان عليه الصلاة والسلام يحذّر من الفتن.

فعلى المسلم أن يتأدب بالآداب الشرعية في الفتن، ومنها:

الأول: التأي:

أخرج مسلم عن أبي جَمْرَةَ قَالَ كُنْتُ أُتْرَجِمُ بَيْنَ يَدَيْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ تَسْأَلُهُ عَنِ نَبِيْدِ الْجَرِّ فَقَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ الْوَفْدُ أَوْ مَنْ الْقَوْمُ قَالُوا رِبِيعَةٌ قَالَ مَرَحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرِ خَزَايَا وَلَا النَّدَامَى قَالَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي شَهْرِ الْحَرَامِ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَضَلَّ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ... وَزَادَ ابْنُ مُعَاذٍ فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْأَشْجِ أَشْجِ عَبْدِ الْقَيْسِ: "إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ".

الثاني: الحلم، فبالحلم يمكن رؤية الأشياء على حقيقتها، وعلى ما هي عليه.

الثالث: للقول والعمل في الفتن ضوابط يجب التزامها:

ليس كل مقال يبدو لك حسناً تظهره، وليس كل فعل يبدو لك حسناً تفعله؛ لأن الفتنة قولك فيها يترتب عليه أشياء ولأن الفتنة عملك فيها يترتب عليه أشياء. أخرج البخاري في باب " حفظ العلم " عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَشْتُهُ وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَشْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ".

الرابع: عدم التقدم بين يدي العلماء:

قال الحافظ الذهبي في " السير " في بيان أدب عبد الله بن المبارك مع سفيان بن عيينة رحمهما الله: وَسُئِلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ بِحُضُورِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ: إِنَّا نُهِنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ عِنْدَ أَكَابِرِنَا.

وأخرج البيهقي في " المدخل إلى السنن الكبرى " عن مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَاصِمٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، وَقَدْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ شَابٌّ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ يَتَرَأَسُ، وَيَتَكَلَّمُ، وَيَتَكَبَّرُ بِالْعِلْمِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، قَالَ: فَغَضِبَ سُفْيَانُ وَقَالَ: لَمْ يَكُنِ السَّلْفُ هَكَذَا كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَدَّعِي الْإِمَامَةَ، وَلَا يَجْلِسُ فِي الصَّدْرِ حَتَّى يُطَلَّبَ هَذَا الْعِلْمُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَأَنْتَ تَتَكَبَّرُ عَلَيَّ مَنْ هُوَ أَسْنُ مِنْكَ، فَمَنْ عَنِّي وَلَا أَرَاكَ تَدْنُو مِنْ مَجْلِسِي.

وقال أيضاً: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، يَقُولُ: «إِذَا رَأَيْتُ الشَّابَّ يَتَكَلَّمُ عِنْدَ الْمَشَايخِ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ مُبْلَغًا
فَأَيْسَ مِنْ خَيْرِهِ فَإِنَّهُ قَلِيلُ الْحَيَاءِ».